الأصول الطبيعية للدين عند ديفيد هيوم
(التاريخ والنشأة)

د.سوسان الياس*

الملخص

يسلط البحث الضوء على الطروحات الفلسفية لهيوم عن النشأة التاريخية للاعتقاد بالدين، والتدرج من تعدد الآلهة إلى دين التوحيد. والوقوف على المنابع الطبيعية للشعور الديني والتاريخ الطبيعي والعادي للدين ورفض التاريخ المقدس له.

كما ويشير البحث إلى قصور المنهج العقلي– بنظر هيوم– للبرهنة على إثبات وجود الله، والذي ما انفك العقليون يدّعون المعرفة اليقينية بحقائق الإيمان. وإثارة الشك والارتياب بمبادئ الدين والنتائج اللاأدرية التي انتهى إليها هيوم.

الكلمات المفتاحية: الدين، الاعتقاد، الطبيعة البشرية.

* قسم الفلسفة – كلية الاداب – جامعة دمشق

The natural Origins of religion in David Hume "History and Origin"

Dr. Susan elias

Abstract

The research highlights on the philosophical views of Hume upon the historical rise of belief in religion and the graduation from Poytheism to the religion of monotheism. And standing on the natural sources of religious feeling and the natural and normal history of religion and rejecting the sacred history of it.

Research also poiats to the limitaions of the mental approach in thume's view of the priests to prove the existence of God. That Retionalists who were still claming a certain knowledge of the truths of faith, arousing suspicion of the principles of religion and The agonostic consequences that Hume concluded.

Key words: Religion, Belief, Human nature

توطئة:

على الرغم من أن المسألة المعرفية، وما ترتب عليها من إشكالات منهجية تتصل بكيفية تحصيل الإنسان لمعارفه، قد شكلت الهاجس الفكري لفلاسفة العصر الحديث، إلا أن الاهتمام بمسألة الدين وفكرتنا عن وجود إله عالم ومُشِكلٍ للعالم، بقيت حاضرة في العقلية الحديثة.

فديكارت الذي آمن بوجود أفكار أولية في العقل سابقة على أية تجربة، يقر بوجود فكرة فطرية عن كائن لا متناه تتسيّد جميع أفكارنا العامة، وينتهي، بما تتضمنه تلك الفكرة من كمالات وبطائفة من الاستدلالات العقلية، إلى الإقرار بوجود إله مفارق وضامن لصحة معارفنا. ويوافقه ليبنتز وسبينوزا على المبدأ المتعالي (الله) الفاعل في الكون وحياة الإنسان. وإن اختلفا في الطريقة والاستهلال.

في حين أن لوك، فيلسوف التجربة الأول، يتهم كل استخدام للإله بوصفه ضامناً للمعرفة بأنه "سطحي وعقيم"، وينكر دعاوى المذهب العقلي الذي يربط بين الطبيعة الإلهية وبين طريقتنا في المعرفة. أما باركلي، وبنزعة حسية مفرطة، جعل من وجود الله وعلاقته بعالمنا، محور اهتماماته الفلسفية ومآل نظريته في المعرفة. وكان هيوم معنياً بمشكلة الله والدين، عناية لا تقل عن عناية باركلي، ولكن من الطرف المضاد، حيث كان ضد فكرة "القدر المكتوب"، وأن استمرارية القول بالمعجزات تكمن في أن الناس يقبلونها ويؤمنون بها كتعاليم تتناقض مع ما هو طبيعي وبأنها "حدوث ما هو مستحيل".

كان غرض هيوم من طروحاته الفلسفية أن «يعزل الدين، أو ما أطلق عليه في جفاء اسم "الخرافة المستقرة"، عن أي سيطرة فعالة على الحياة الأخلاقية للفرد والإنسان الاجتماعي»[1].

وجد هيوم إرثاً فكرياً في كتابات شيشرون وبيل* الشكاكة، وكذلك في النزعة الطبيعية التي نادى بها بيكون وهوبز، فهو يتفق معهم بالقول بأنه لا معرفة برهانية عن الله «لكنه

[1] جيمس كولينز، الله في الفلسفة الحديثة، ت. فؤاد كامل، دار قباء، القاهرة، 1988، ص164.

لا يشاطرهم موقفهم في استبعادهم للاعتقاد في الإله إلى المجال الخارق للطبيعة»[1]. الأمر الذي أدى به إلى نقد المعارف العقلية، التي ما انفك أصحابها يدّعون المعرفة الإيقانية بوجود إله مفارق للبشر، ونقد موضوعات الميتافيزيقا على العموم، واكتفى بأن الحقائق قصرت على وقائع التجربة وحقائق الرياضيات يقول: خذ كتاباً من كتب اللاهوت، أو الميتافيزيقا المدرسية وتساءل: هل يتناول أي تفكير عقلي مجرد عن الكم، هل يتناول تفكيراً تجريبياً عن الواقع والوجود، كلا؟ اقذف به في النار لأنه لا يحتوي إلا على سفسطة وخيال»[2].

أولاً: نقد العقل: لا معرفة برهانية عن الله

بيّن هيوم، مثل معظم تنويري القرن الثامن عشر، كقاعدة عامة، نقص وقصور المنهج العقلي حول أصل الدين ومعرفة الإله والتدليل على وجوده بطريقة مجردة ماهوية، إذ «إن مثل هذا التدليل يمكن أن يكون متسقاً غاية الاتساق، وشاملاً كل الشمول، ولكن لن تكون له، مع ذلك، دلالة وجودية، أو ارتباط بخبرتنا»[3].

إن تقييد هيوم الظاهري للعقل داخل إدراكاتنا الحسية التي لا تُنبأ بشيء عن أشياء موجودة ومتميزة، فمجرد تحليل الإدراكات لا يكشف عن التركيب الحقيقي للعقل والطبيعة، ذلك التركيب الذي يزودنا بالأساس الميتافيزيقي للاستدلال العلي، على وجود الله وغيره من الموضوعات، ولكن في الوقت نفسه لا يعوّل هيوم على الاستدلالات العقلية الآتية من التجربة لاتصافها باللايقين واللاأدرية في موضوع مُشْكلٍ كوجود الله ومعرفته. كما أن الإصرار على تصور الله كحالة شبيهة بحالة الإنسان، وهو موقف السواد الأعظم، والتأكيد الحاصل على لسان الفلاسفة باستعمال العقل والفكر والمنطق في معرض الحديث عن الله «بافتراض التماثل بين طبيعة الله

---

* بيل (1647–1706) كاتب ومفكر فرنسي، تطّبع بطابع الشك والتفكير الحر وتبعه فيما بعد فولتير وأصحاب الموسوعات. راجع في ذلك كتاب هيوم: محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة فيصل عباس، ص83.

[1] جيمس كولينز، الله في الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص165.

[2] ديفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ت. موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2008، ص221.

[3] جيمس كولينر، الله في الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص168.

والعقل البشري، سيترتب على ذلك، هو التخلي عن فكرة الكمال الإلهي»[1] التي اعتمدها العقليون كأساس لاستدلالاتهم على وجود الله.

والموقف الذي انتهى إليه هيوم، إثارة الشك والارتياب بقدرات العقل وبمبادئ الدين، بكلمات مثل «اللغز والسر الغامض، الأحجية، الامتناع عن الحكم، الريبة...». وفي كتابه "محاورات في الدين الطبيعي" فحص هيوم البراهين والتأكيدات النظرية بشأن الإيمان على لسان شخصيات حواريّته، ففي الجزء الثاني عشر والأخير من الكتاب ينهي حواره بالكلمات الآتية «إن مبادئ فيلون أقرب إلى الرجحان من مبادئ دميان، ولكن مبادئ كليانتس أقرب إلى الحقيقة»[2].

وفي رسالة بعث بها هيوم إلى جلبرت عام 1751، نوّه هيوم عن كليانتس وكأنه "بطل المحاورات"، على الرغم من أن المحاورات توحي بالإحجام عن كل الاتجاهات. والنتيجة تبدو كئيبة «بهذا نحن لا نعرف شيئاً» ومن ثم «عدم النظر إلى الإيمان الديني، كمسألة عامة، باعتباره مسألة لا عقلانية أساساً وبالضرورة»[3]. ولكن وعلى الرغم من هذه اللاأدرية واللايقين المخيب لآمال الإنسان في معرفة الموجودات بما فيها وجود الله، بالاستناد إلى العقل النظري، نجد هيوم «ينسى كل شيء حول شكوكه الأساسية»[4]. ويكتب كأي مستنير من أبناء عصره، وبروح موقنة عن النشأة الطبيعية للأديان، والتي ضمنها كتابه "التاريخ الطبيعي للدين" وفيه يجيب هيوم عن: لماذا للناس أمل بالاعتقاد

---

[1] ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص247.

[2] ديفيد هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ت. فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1981، ص216.

تضمنت محاورات هيوم في الدين الطبيعي شخصيات ثلاث: **فيلون:** يحمل معتقدات توكيدية شديدة الغموض عن الله والإيمان الديني، **دميان:** الشخصية الورعة في طرح الدعاوى ضد كليانتس وهي الشخصية الثالثة في المحاورات الرافض لأي محاولة معرفةٍ عبر النقد والنقض.

[3] ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص239.

[4] برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة، ترجمة. محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص270.

بالآلهة؟ وكيف نشأت اعتقادات البشر بالدين؟ كيف تدرّج تاريخياً من التعددية إلى التوحيد.. وغيرها. والمنطلق الفلسفي في ذلك الأصل التجريبي لفكرة الإله.

ثانياً: الدين: من التعددية إلى التوحيد

إن البحث في الدين– بنظر هيوم– يتعلق بالإجابة عن سؤالين أساسيين في هذا المجال، يتعلق الأول: بالتساؤل حول أصل الدين في العقل والثاني بأصله في الطبيعة البشرية. وإذا كان الأول يقدم لنا حلاً أكثر وضوحاً لا يخطئ العقل فيه «حيث الإطار الكلي للطبيعة يدل على مبدع ذكي، ولا يستطيع باحث عقلاني، بعد تأمل جدّي، إلا أن يؤمن بالمبادئ الأولية الحقيقية للتوحيد والدين»[1]. فإن السؤال الثاني، والذي يتعلق بأصل الدين في الطبيعة البشرية، عُرضة لصعوبة أكبر وهو ما سيحاول هيوم فض مغاليقه في النشأة التاريخية للعقائد الدينية عند البشر.

بداية يمكن القول: إن تصور هيوم عن الدين، يندرج بعيداً عن حالة القداسة التي حظي بها الدين عند العامة والخاصة من الناس، وفي منأى عن النصوص الدينية، خاصة أن هيوم بفكره ليس ميالاً للتحليق في الأعالي سعياً وراء الحقيقة، ونلمس فيه نشأة طبيعية وتاريخية مقابلة لتاريخ ما هو «فوق الطبيعي» والمتعالي للدين، الذي استحوذ على العقول في التصورات التقليدية عن الدين ونشأته «حيث سعى لتطوير نظرية وضعية في الدين، جدد فيها ما هو أساسي وطبيعي في الاعتقاد الديني»[2]. والفكرة الأولية التي ينطق منها هيوم للبحث في الأديان تجيز القول بأن الاعتقاد الديني ليس شاملاً وثابتاً وبلا استثناء بين البشر، على الرغم من الانتشار الواسع للأديان بين الأمم والحضارات «فقد اكتشف أن بعض الأمم لم تتمتع بعواطف الدين [....]، ولا توجد أمتان وربما شخصان توافقت عواطفهما تماماً»[3] حتى يمكن عدّه حاجة أصيلة وغريزية في الطبيعة

[1] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، ترجمة حسام الدين خضور، دار الفرقد، دمشق، 2014، ص7.

[2] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت. ص8.

[3] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص7–8.

البشرية، كعاطفة الحب، والزواج، وعاطفة العرفان بالجميل وغيرها ومن ثم فإن العقائد الدينية الأولى حاجة ثانوية مكتسبة وليست فطرية في الإنسان.

يميز هيوم في تاريخ الأديان بين دين شفهي ودين كتابي، الأول دين القدماء الذي كان معقداً متناقضاً وفي مناسبات عديدة ريبياً، يعتمد الصوت والكلام، وهو أكثر هشاشة وتفككاً «لذلك لا يمكن أن يقلص إلى أي معيار أو شريعة»[1]. وديانات القدماء ونتيجة افتقارها للتدوين، كانت معرضة للتلف والضياع وبدت أقل تماسكاً باعتمادها آلهة متعددة، تحاك المرويات والقصص المتنوعة حولها وتكون أكثر عرضة للتشويه والتحريف، والإيمان بها «يتبدد مثل سحابة، متى اقترب منه المرء وتفحصه جزءاً جزءاً، ولم تكن ثمة إمكانية لأن تؤكده أية عقائد أو مبادئ راسخة»[2].

أما الأديان الكتابية، في تاريخها المقدس المروي بنصوص، تقيم عليها صرحها وشريعتها، عاملاً أساسياً في صونها وحفظ قواعدها من التلف.

يؤكد هيوم، عكس تقليد القرن السابع عشر، أن تعدد الآلهة أو الوثنية Polytheism كان الدين الأول والأبعد قدماً في تاريخ البشرية، معارضاً أهل عقيدة التوحيد MaMotheism حول نشأة الدين، والتي كانت تعتبر "الشرك أحد مظاهر السقوط في الخطيئة"[3] نتيجة ابتعاد الإنسان عن خالقه السماوي الواحد أحد، لا بل إن القول بأن دين التوحيد، وهو الشكل المتطور من الأديان، لا يضاهيه دين في الوجود، هو الدين الأول للبشر، كمن يقول: إن الإنسان البدائي توصل لمفهوم معقد عن كائن سامٍ واحد، ثم خسره مع تطور الحضارة والثقافة. وهذا أمر لا منطقي.

ويدعم هيوم رأيه حول أسبقية الشرك على التوحيد ببعض الأمثلة، استناداً إلى معطيات تاريخية وأنثروبولوجية: إن البشرية قبل نحو 1700 كانت متعددة الآلهة «وبقدر ما

---

(1) المرجع السابق، ص94.

(2) المرجع السابق، ص95.

(3) محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، مرجع سابق، ص14.

نذهب أبعد في العصور القديمة نجد الإنسانية مغمورة في تعددية الآلهة»[1]. والأساطير والسجلات القديمة تقدم أدلة وافية عن عقيدة الشرك بوصفها عقيدة راسخة بين الشعوب القديمة على اختلاف مواقعها. ويعتقد هيوم أن أدلته مطابقة للواقع ومن القوة بحيث لا يوجد دليل يعارضه. وقد ارتبطت البدايات الأولى للشرك أو الوثنية بمظاهر الحياة المتخلفة في المجتمعات البدائية (البدوية) الغارقة في الجهل والهمجية والبربرية، كبعض القبائل في أستراليا وأفريقيا إذ «متى وجد جاهلون ومتوحشون يمكنه أن يصرح مقدماً بأنه وثنيون»[2]. تسيطر على الإنسان فيها حالة ضعف عام، والكفاح من أجل البقاء، لا تستثيره الدهشة في معرفة حقائق الأشياء حوله ولا الكشف عن أصولها وغاياتها.

ولكن ما هو أصل تلك الديانات الوثنية؟ وكيف نشأت عند الإنسان القديم؟

ينفي هيوم أن يكون للتأمل النظري والتدبر في بنية الطبيعة أو حب الحقيقة الخالص دور في نشوء المعتقد بتعدد الآلهة عند الإنسان البدائي، بل إن «التغييرات الظاهراتية للحياة ومحاولة التحكم فيها بصورة أفضل»[3]. والقلق المستمر الملازم لطبيعة الإنسان على حياته من عنف الطبيعة ومظاهرها الخداعة المدمرة، بعثت على فكرة وجود قوى متعددة ومتنوعة في الطبيعة، تعددت بتعدد ظواهر الطبيعة، وتلك القوى صعدّها الإنسان «بواسطة التخييل، وهي الملكة الوحيدة القادرة على الامتلاء بالخبرة»[4]، إلى قوى خفية عاقلة اتخذت شكل آلهة متعددة وغير ثابتة ومتضادة: كإله الحرب، وإله المطر، وإله البشر.. لها قدرات أكثر من قدرات البشر، لكنها من لدن القدرات البشرية. وكان «لكل أمة آلهتها الحارسة، وكل عنصر يخضع لقوته أو عامله الخفي، ودائرة كل رب منفصلة

---

[1] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص9.

[2] المرجع السابق، ص11.

[3] جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، طبعة أولى، بيروت، 1993، ص83.

[4] المرجع السابق، ص83-84.

عن دائرة الرب الآخر، وعمليات الرب نفسه ليست مؤكدة ثابتة»[1]. يُخضع الإنسان نفسه لسلطتها تلك، فيتم استحضار جونو في الزيجات. ولوسينا في الولادات ويتلقى نبتون صلوات البحارة ومارس صلوات المحاربين.. ولا شيء ناجح أو مناوئ دون أن يكون متوقفاً على صلوات خصوصية أو شكر[2].

لم يكن الإنسان البدائي (المشرك) بنظر هيوم، يملك وعياً كافياً للتفكير في ظواهر الطبيعة، ولم يكن مهتماً بالتفكير العقلي للكشف عن عللها وأصولها الخفية، فالتفكير في أصل الوجود ومصدره، هو ثمرة تأملات الفلاسفة واللاهوتيين، الذين لجؤوا إلى علة عاقلة ومتفوقة وذكية كسبب أول لكل الأشياء. كما لم يكن ليتصور أن مصدر العالم هو آلهته التي كانت "كالجن والملائكة" فمن يتأمل في قدرات وقوى تلك الآلهة المتعددة سيظهر له أن آلهة المشركين لم تكن أحسن وضعاً من جنيّ وكالملائكة التي يؤمن بها أتباع الأديان الأكثر تطوراً، وهي ليست مصدر تبجيل واحترام وتقوى من الناس، ونتيجة ذلك فهي لم تخلق العالم وإنما تسيطر عليه[3]. وبنتيجة ذلك كانت آراء البدائيين ميالة للاعتقاد بالخرافات في الدين، والتي غلفت تأملاتهم حول الحقيقة والواقع، ولم تقدم أية إشارة إلى إله أو "عقل ذكي"، فالناس العاديون غير آبهين بالتفكير في أنظمة دينهم وحتى علماء اللاهوت نادراً ما قاموا باختراق كبير.

ولكن ما الذي يحدث لظهور الإيمان بإله واحد (دين التوحيد)؟

---

[1] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص19–20.

[2] المرجع السابق، ص19–20.

في الحضارات القديمة كان نبتون إله الماء والبحر في الميثولوجيا الرومانية، أما مارس فهو إله الحرب في الدين في روما القديمة والميثولوجيا الرومانية، أما جونو: هي ربة إيطالية زوجة الإله جوبيتر، كانت تتضرع إليها الزوجات العاقرات، وكانت جونو لوسينا إلهة ولادة الأطفال وحاميتهم.

[3] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص32.

إن الانتقال من الإيمان بتعدد الآلهة إلى الإيمان بإله واحد، وهو الشكل المتكامل للشرك «ليس وليد التفكير والاستدلال، إنما حصيلة تنمية المجتمعات البشرية»[1]، فبالاستناد إلى مبدأ الغلبة والقوة لدى الشعوب البدائية، ونتيجة السلطة الواحدة المتزايدة لبعض القبائل، يجري اعتراف الناس عند القبائل المهزومة، والذين يؤمنون بمجموعة من الآلهة، بقوة آلهة القبائل المنتصرة والتي تتجاوز آلهتهم نفسها، ويكون لها من الصدارة والقوة بحيث يمكن تسميتها "بإله الآلهة"، «الذي على الرغم من أنه من الطبيعة نفسها، فإنه يحكمهم بسلطة، مثل تلك التي يمارسها سلطان على رعاياه وتابعيه»[2].

ومن خلال اعتراف الناس بوجود تلك القوة التي تتجاوز آلهتهم، وبإلحاح مشاعر الخوف والألم والقلق، وابتكار أنواع جديدة للتملق، يرتقي الناس في تصعيد صفات وألقاب آلهتهم، حتى يصلوا حدّاً لا ارتقاء أبعد مِنه، وعندها ينبثق التوحيد في العقيدة الإلهية، ويسود الاعتقاد بإله واحد ذكي قوي كامل، اجتمعت لديه صفات لا متناهية من الخيرية والحكمة والقدرة والرحمة، وهي ليست في واقع الحال سوى امتداد لقوى الإنسان وتعظيمها إلى اللانهاية، إن «كمال الإله ما هو إلا الكمال الإنساني غير المتعين في الواقع البشري، وإن كان متعيناً في الوعي الإنساني كفكرة أنتجها الخيال»[3].

والنتيجة أن الشرك أصل الدين وليس التوحيد.

هذه الوحدانية لم تكن نقية وصافية، بل يتأرجح فيها الإنسان بين التوحيد والوثنية بحركة ارتدادية يشبهها هيوم بالمد والجزر، حيث الناس «يتقبلون بين هذه العواطف المتعارضة، ولا يزال الضعف نفسه يجرهم نحو الأسفل، من إله روحي كلي القدرة، إلى إله جسدي محدود، ومن إله جسدي محدود إلى تمثال أو تمثيل جزئي، والمسعى نفسه إلى العلو لا

---

[1] محمد فتح علي خاني، فلسفة الدين عند ديفيد هيوم، ترجمة حيدر نجف، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة، 2016، ص531.

[2] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص54.

[3] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة ديفيد هيوم، مرجع سابق، ص20-21.

يزال يدفعهم نحو الأعلى، من التمثال والصورة المادية إلى القوة غير المرئية، ومن القوة غير المرئية إلى إله كامل لا محدود خالق الكون وسلطانه»[1].

هذا التعارض الحاصل بالمشاعر والانفعالات، نتيجة النوسان والتردد بين التوحيد وتعدد الآلهة، يولد ميولاً دينية متضاربة، تتخذ لاحقاً شكل صراعات بين الإيمان والإلحاد، وحتى بين الطوائف الدينية نفسها، وتتولد عنها قيم منافية لجوهر الدين الذي يبجلّه الإنسان، تدفع به إلى التعصب والعنف واللاتسامح.

ثالثاً: الآثار الأخلاقية بين التعددية والتوحيد

يرى هيوم أن التسامح والتساهل أكثر شيوعاً بين الأمم التي تدين بتعدد الآلهة، لأن المشركين؛ ونظراً لمحدودية القوى والوظائف التي تنسبها لآلهتها، فهي «تقبل بشكل طبيعي آلهة الطوائف والأمم الأخرى»[2] في الألوهية، مما يبعث على نشر روح التسامح والتساهل بين الوثنيين، قديماً وحديثاً. وما يؤيد هذا الإدعاء كتابات المؤرخين والرحالة التي تشهد على ممارسة الكهنة، وهم الأكثر حماسة ودفاعاً عن الدين، في منح الصفح والعفو لمن يخالفهم في المعتقد والعبادة، فقد «تبنى الرومان، بشكل عام آلهة الشعوب المحتلة، ولم يشكوا أو يفندوا صفات تلك العبادات المحلية والوطنية، في الأراضي التي استقروا فيها»[3]، على خلاف أهل التوحيد الذين يؤمنون بإله واحد، فعلى الرغم من خيرية نظامهم الديني، والذي يمكن أن يحمل طابعاً إنسانياً في ممارساته، وبسبب

---

[1] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص65–66.

يسمي هيوم، التوحيد الناشئ عن التحول غير المكتمل للشرك بالدين الطبيعي، خصائصه ليست مختلفة عن خصائص الشرك الذي ورثه، غير أنه يولد التعصب والاضطهاد واللاتسامح، وهو أكثر توافقاً مع العقل، وهو كان يجب أن يظهر أكثر عدالة وتسامحاً. راجع جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، ص84.

[2] المرجع السابق، ص67.

[3] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص69. يشير هيوم إلى أن الحروب الدينية واضطهاد الوثنيين المصريين، هو استثناء لقاعدة عامة يفسرها بأسباب فردية متعلقة ببعض المعتقدات والعبادات السائدة والمتباينة بين المصريين، ولأن الآلهة كانت في حرب مستمرة ورطت معها عابدوها في النزاع – راجع ديفيد هيوم، المرجع السابق، ص70 وما بعدها.

الحماسة المتشددة لكل طائفة بالدفاع عن معتقدها، تقع الطوائف في العداوة والحقد والبغضاء... فاليهودية معروفة بالروح المتعنتة والضيقة... ومبادئ التسامح بين المسيحيين نشأت من العزم الراسخ للحكم المدني في معارضة المحاولات المستمرة للرهبان والمتعصبين، والمحمدية انتشرت بطرق دموية[1]. والتاريخ مليء بالشواهد على الصراعات الدموية والحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، ومحاكم التفتيش وعداءها لرجالات العلم والفلسفة وغيرها.

ولعل ما يمنح الدين قوته التسلطية ربط نفسه بنظام لاهوتي مدعم بسلطة مرئية مثل: بابا الكاثوليك، أو نصوص مدونة كالقرآن[2]، جذبت إليها إضافة لعامة الناس أهل العلم والفلسفة، الذين يؤمنون بالميثولوجيا– الدينية التوحيدية فيقعون في أسرها ويخضعون لمنطقها المنافي للعقل، فيسود نظامها ويتراجع نظام العقل. ويدافع عنها الفلاسفة «إلى درجة أن كل من يعارض الدين الرسمي يتهمه الفلسفة بالكفر والبدعة»[3].

الحقيقة أن مسألة التسامح الديني، تظهر عندما يسود الشر والظلم والبغضاء بين الطوائف الدينية المختلفة بالمعتقد، وتتصل بغاية الإنسان من إيمانه وتدينه بدين معين، وبالكيفية التي وصل إليه بها هذا الدين، ما يطرح مسألة كيفية صدور هذه العقيدة (الدين) لدى الإنسان ونشأتها.

رابعاً: في أصل الدين ومصادره:

سعى هيوم إلى البحث في نشأة المعتقدات الدينية وأصولها، على أسس من الطبيعة البشرية، والتفاعل الاجتماعي بين الأفراد، على الرغم من أنه لم يجب عن السؤال هل يوجد الله؟ فالدين «لا يقوم في العقل. ولا في الوحي والنقل، بل يقوم في طبيعة الإنسان وفطرته»[4]. من وجهة نظر الأهواء والعواطف التي هي مصدره. فالشعور الديني يعود

---

[1] المرجع السابق، ص70.

[2] المرجع السابق، ص80.

[3] محمد فتح علي خاني، فلسفة الدين عند ديفيد هيوم، مرجع سابق، ص533.

[4] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء، الإسكندرية، 2000، ص349.

فـي صـدوره إلـى اهتمـام الإنسـان بالحيـاة والأعمـال الدنيويـة، وبموضـوعات الآمـال والمخاوف التي حثت على نشاط روح الإنسان، فالدين مرهون بظهور انفعالات الآمال والحيرة والرهبة وليس النظر في أصل العالم وانتظام الظواهر الطبيعية الكونية.

ولعل الركون إلى دور الانفعالات في انبثاق الوعي الديني، قد أشار إليه اسبينوزا حيث «يتذبذب الشعور الديني بين الخوف والرجاء، بين الرهبة والرغبة»[1]. لكنه لم يكن ليعزو نشوء الإيمان بوجود الإله على أساس من الخوف. كما أن هوبز، يرى أن واحد من الأسباب لظهور الدين يكمن في رغبة العقول إدراك أسرار الكون واهتمام «الناس في معرفة أسباب الأجسام الطبيعية، أو قواها وعملياتها المتعددة»[2].

وخلافاً لهوبز، يرى هيوم بأن الباعث الرئيسي للإيمان بقوى مفارقة يكمن في حاجات الناس التي تعززها الحياة اليومية التي لم تشبع لدرجة كافية، فينشأ هلع وقلق يناسب الفضولية الضعيفة للإنسان، يحمل طابع «التطلع القلق إلى السعادة... والرعب من الموت، والتعطش إلى الانتقام»[3]. ومن اهتمام الإنسان بمحاولة التغلب على مشاعر الاضطراب والخوف مما يصادفه في حاضره، والقلق من أحداث المستقبل، ومن ضغط الحاجات الواجب إشباعها «وباللجوء إلى اختبار فوضى الخير والشر وسيئات الثروة، إلى اتقاء المظاهر الضارة لهذا التغيير المصمم»[4]، تنشأ تصورات أكثر تحديداً وخصوصية وأكثر ملاءمة لطريقة الناس العوام بتمثيل حقيقة آلهتهم التي «مهما تكن قوية وخفية، ليست غير نوع من الكائنات البشرية، ارتقت من بين البشر، واحتفظت بكل

[1]اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم د. حسن حنفي، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار التنوير، بيروت، 2005، ص13.

[2]إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985، ص405.

[3]ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص21.

[4]جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مرجع سابق، ص83.

أهواء البشر وشهواتهم»[1]. وكلما اشتد غضب الطبيعة وأحدقت بالإنسان الكوارث، ارتفعت درجة التدين وأصبح الإنسان أكثر قرباً من الدين...

فالخوف من قوى الطبيعة وعجز الإنسان الدائم عن مواجهة قواها الشريرة، قادته بكل الطرق لاسترضاء تلك القوى التي تتسيّد قدره بالكامل، فعمل على عبادتها. وكتب الملاحم والقصائد في تمجيدها حتى «الأناشيد الوثنية، في كل حال، التي تنشد في العبادة لا تحتوي شيئاً إلا صفات التمجيد»[2] للآلهة أملاً في تحقيق السعادة المطلوبة للبشر، والتي غالباً ما كانت تقابل بالملامة والسخط عندما تبتعد عن تحقيق آمالهم.

ولكن كيف صور الإنسان آلهته في طقوس عبادته لها؟

ارتبطت عبادة الناس للآلهة بالصور والإشارات والحكايات الرمزية، التي تعبر عن انفعالات عاطفية، تعكس تصور الإنسان في إدراكه اتجاه الشيء المقدس له، والتي تعمل «على إقامة حالات نفسية وحوافز قوية وشاملة ودائمة بين الناس»[3]. هذه الحكايات، التي وجدت نموذجاً لها في أساطير الوثنيين (ملاحم هوميروس وهزيود)، تمنح آلهتها مغامرات وأفعال تتناسب وقدراتها ومكانتها، فإله الحرب صُوِّر بالبأس والشجاعة والقوة، وإله الشعر صُوِّر بالرقة واللين والتودد. ومن الطرافة أن ينسب هيوم إلى النساء، دون حجة أو دليل، أنهم كانوا الأكثر تعصباً وقرباً من المعتقدات الدينية، وأن هؤلاء يحفزن الرجال على التقوى والتضرع والتقيد بالأيام الدينية، فمن النادر أن نلتقي برجل يعيش بعيداً عن الإناث، وفوق ذلك مدمن على هذه الممارسات[4].

إن تفاوت البشر في القوة والضعف، وشعور الإنسان بعجزه، وجهله أمام بعض أقرانه ممن يتصفون بالقوة والشجاعة والفهم، ولّد مفهوم "البطل"، والشخص المتميز لديهم، مما جعل الإنسان يخلق له صورة متفردة أو صورة عن آلهة متعدداة، نابعة من خياله،

---

[1] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص27.

[2] المرجع السابق، ص106.

[3] ثروة عكاشة، تاريخ الفن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983، ص341.

[4] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص29.

يحيطها بهالة من العظمة، تصبح موضع إعجاب وتقدير لفئة عريضة من البشر، وبانقاد مشاعر الحب والتمجيد والتبجيل والامتنان، يمنح "البطل" صفة التقديس، ويُعبد «ولا شيء يمكن أن يكون أكثر طبيعة من تحويله إلى رب»[1]. وبتعزيز مكانته في الذاكرة الشعبية بقصص البلاغيين والرهبان وملاحم الشعراء، أصبح مصدراً للخرافة والشعوذة، ونسجت حوله حكايات البطولة والشجاعة الفائقة والقدرات الخارقة، التي تجعله في مكانة مجاوزة، كقوة طاغية، له من الجبروت والقوة، يخضع له البشر ويحتمون به.

تثير هذه العلاقة بين الإله المقدس والمرمّز له بكل الصفات الخارقة والمفارقة، وبين الإنسان المتعبد في محرابه، تساؤلات عن طبيعة هذه العلاقة؟

ارتبطت فكرة الألوهية بأذهان الناس بالقوة والمعرفة والقدرة، وكلما تمتعت هذه الآلهة بالرفعة والعظمة، كلما اتسعت قسوتها وسطوتها، وابتعدت عن "الطيبة والإحسان"، وهذا مرده برأي هيوم، إلى تأسيس عبادة الآلهة أو الوثنية على المزاج الشعبي، الذي يبيح كل شيء ويجيز الخبث على السذاجة[2]. والقسوة على المحبة والعطف.

ولعل الغلو في تقديس الآلهة والمبالغة في إظهارها بمظهر المتفوق، يقابله تدني مكانة الإنسان وحضوره، والانتقاص من فاعليته، مما يؤدي إلى «تضاؤل الإنسان أمام نفسه ومن ثم تضاؤله أمام الإله»[3]. الأمر الذي يجعل من التدين صفة ملازمة للخداع والذل، تغدو معه العلاقة بين المؤمن وربه علاقة "السيد بالعبد"، علاقة خنوع وخضوع وتذلل تصل حد القول بأن هؤلاء «لم يبتكروا إلا طاغية»[4].

والأمر عينه يحدث في الأديان التي تؤمن بإله مفارق متعالي، حيث تبرز كل صور الانتقام والعنف والكراهية، تحت وطأة مخاوف الناس الكئيبة، مما يفاقم «الترويع والذعر

---

[1] المرجع السابق، ص46.

[2] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص67.

[3] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، مرجع سابق، ص21.

[4] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص114.

الذي يقمع المتدين المذهول»[1]. ولعل هذا هو موقف مكيافيللي من عقائد الدين، حيث ذكر الشجاعة السلبية والمعاناة، وأخضعت الروح الإنسانية وهيأت الناس للعبودية، فقد «أوهنت عزيمة الإنسان وأسلمت الدنيا لأهل الجرأة والعنف، فهي نافعة وضرورية للجمهور فقط المطلوب منه الطاعة»[2].

أمام هذا الوضع فإن العاطفة الداخلية لدى الإنسان، ونتيجة العنف والانتقام، تضمر موقفاً عما هو معلن، وهذا الصراع الداخلي يفاقم مخاوف الإنسان ليبلغ حداً خرافياً، يواجه برعاية المقدس وتفوقه. عندها هذا الاعتقاد «يغدو عرضة للغوص بالعقل الإنساني إلى أسفل دركات الخضوع والذل، وتمثيل الفضائل الرهبانية بإماتة الشهوات والندم والتواضع والمعاناة السلبية»[3]. والقاعدة الذهبية في ذلك أن «فساد الأشياء الأفضل يفسح المجال لبروز الأسوأ». فأتعس المفاسد يمكن أن تجتمع مع الورع والمبالغة في التدين، تدفع بالإنسان أكثر فأكثر نحو القلق وتذوق السر الغامض المبهم: الذي يضع الإنسان في حيرة وتردد وتشكك، بدافع البحث عن الحقيقة واليقين المفقود الذي ينشدهما ولن يجدهما مهما حاول.

هذا الجانب المظلم من الدين، الذي يفرض طقوسه وفق قواعد صارمة وقاسية[4] يتنافى مع الأخلاق الإنسانية، ويدفع ببعض الفلاسفة وأهل الفكر والقليل من العامة، للانخراط في أخلاقيات الواجب بعيداً عن الدين، الذي يصفه هيوم بأنه «كله مزعج ومرهق إلى الأبد»[5].

---

[1] المرجع السابق، ص103.

[2] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت، ص25.

[3] ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، مرجع سابق، ص75.

[4] يشير هيوم إلى الكثير من العبادات الدينية التي تفرّط بقيمة الإنسان، وتكون أشد قسوة من الواجب الأخلاقي، الممارسات الصارمة في الصوم والعبادة عند بعض الرومان الكاثوليك، وطقوس الصيام القاسية وخاصة بالنسبة للفقراء والمعوزين في شهر رمضان، ديفيد هيوم: المرجع السابق، ص116.

[5] ديفيد هيوم، المرجع السابق، ص116.

الخاتمة:

إن ما قدّمه هيوم من طروحات مضادة حول فرض الله، وتفسير النشأة الطبيعية للدين، وربط أصوله ومنبته بالطبيعة البشرية، ومعارضة الأفكار السائدة عن المعتقد الديني وصفات الله، التي لا تتيح أصغر قدر من حرية للاختيار بين الإيمان واللاإيمان، عدَّها البعض نقطة تحول في تاريخ اللاهوت الفلسفي.

لقد نظر هيوم للشعور الديني نظرة بعيدة عن استدلالات العقل، وأن لا معرفة يقينية يقدمها العقل ولا التجربة في موضوع الإيمان بالله والبرهنة على وجوده. وإذا كان هيوم في نظرية المعرفة، قد جعل العقل أسير العواطف (الانفعالات)، الأمر الذي قاده إلى موقف شكي لا أدري إزاء أصل معارفنا ويقينها، فإنه في نفيه للأسس العقلية لظهور الإيمان، واعترافه بالنشأة الطبيعية التاريخية له، أتاح للشكية تأدية دور مزدوج: إذ هدمت النظرة الأسطورية السائدة عن معقولية الدين في اللاهوت الفلسفي، ولكنها بخست من قيمة النقد النظري للدين على أرضية الإلحاد، كما سيتصوره تنوير وفرنسا وفيورباخ تحديداً في وقت لاحق، إضافة إلى بيان هيوم إفلاس المسيحية في توجيه دفة حياة الإنسان وسلوكياته.

إن تحليل هيوم "للشرك" في الديانات القديمة، وأن تعدد الآلهة هو بالضرورة الدين الأول والأقدم للإنسانية، رافضاً الطروحات المضادة التي تقول بأن البشرية بدأت بالتوحيد، دين العقلاء والإله الواحد الذي نشأ عن التفكير بالأسباب العامة للموجودات، وأن الشرك مظهراً من فساده، ليستنتج مجازية وموضوعية هذه التصورات الدينية من الوجهة التاريخية، وليبحث في الدين كظاهرة إنسانية لها تاريخها ومصادرها في الطبيعة البشرية، وبالإشكالات حول ديانات الوثنية والتوحيد فيما يتعلق بالتسامح الديني ونزعة التعصب وعلاقة الإله المقدس بالإنسان المدنس.

كان لهذه الطروحات الفلسفية حول الدين أثرها الواضح في عصره، إذ بعد هيوم ازداد تعرض الصلة الحميمة بين الفلسفة والدين للتوتر، فعمد بعض الفلاسفة إلى إنقاذ ومراجعة تصوري الله والروح، والنهوض بالدين على نحوٍ يساعد على تصحيح

الطروحات السائدة، التي قوض هيوم أركان الإيمان بها في محاوراته وتاريخ الأديان، وذلك بطرح أسس ومبادئ مثبتة بالحجج التي أخضعها هيوم للنقد الفاحص. ولا زالت تصوراته حول الإيمان بالله والعقيدة الدينية «محتفظة بقدرتها على الإهلاك... بانتزاع الأراضي الوادعة التي كان مسيطراً عليها اللاهوت الفلسفي»[1].

[1] ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الغربية، مرجع سابق، ص258.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1. هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، راجعه وقدم له وترجمة د. فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1980.
2. ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، ت. حسام الدين خضور، دار الفرقد، دمشق، 2014.
3. ديفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة د. موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2008.

المراجع:

4. إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء، الإسكندرية، 2001.
5. إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتزيع، 1985.
6. برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.
7. ثروة عكاشة، تاريخ الفن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983.
8. جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، طبعة أولى، بيروت، 1993.
9. جيمس كولينز، الله في الفلسفة الحديثة، ت. فؤاد كامل، دار قباء، القاهرة، 1988.
10. ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.
11. سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم د. حسن حنفي، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار التنوير، بيروت، 2005.

12. محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
13. محمد فتح علي خاني، فلسفة الدين عند ديفيد هيوم، ترجمة حيدر نجف، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة، 2016.
14. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.